الوصف في الخطاب السردي التاريخي

رواية "زرياب"، لمقبول العلوي نموذجًا

د. أسماء صالح الزهراني

جامعة الملك سعود بن عبد العزيز للعلوم الصحية، المملكة العربية السعودية

asmash20199@gmail.com

الملخص:

يتناول هذا البحث تقنية الوصف في الخطاب السردي، في الرواية التاريخية، كما يتمثل في رواية "زرياب"، للكاتب مقبول العلوي، حيث تكشف الرواية عن علاقتها بالتاريخ بمختلف الطرق، عبر قصتها، وعبر تقنيات خطابها السردي، ويختص البحث بتقنية الوصف، ودورها في بناء تلك العلاقة. موضوع هذه الرواية هو سيرة ذاتية لشخصية تُعدّ علامة فارقة في الموروث الثقافي العربي والغنائي بشكل خاص، عُرِف بلقبه "زرياب"، واسمه أبو الحسن علي بن نافع الموصلي ، مغن وشاعر، اختُلف حول تاريخ ولادته ووفاته، إلا أن المرجح أنه عاش بين القرنين الثاني والثالث الهجري .

اقترن الوصف في السرد الكلاسيكي بالوظيفة التزيينية، لكنه مع تطور التجربة السردية اتخذ موقعا محوريا في تقنيات الخطاب السردي لدى الكتّاب، وفي دراسات السرد، من خلال وظيفته الدلالية والجمالية. ويرتبط الوصف بالخطاب السردي التاريخي من خلال علاقته الوثيقة بعناصر الخطاب السردي، حيث يبني من خلال تلك العلاقة طرائق اتصاله بالواقع التاريخي، ويتأكد هذا الارتباط في رواية زرياب عبر بنيتها بوصفها رواية سيرة ذاتية تتمحور حول شخصية واقعية وإشكالية. وفقا لذلك يتناول البحث موضوعات الوصف، وتقنياته وصولا لعلاقته بعناصر الخطاب السردي التاريخي .

ويهدف البحث للإجابة على أسئلة تتعلق ب تقنية الوصف في السرد التاريخي، وأهمها ما يتصل بتفاعل السرد التاريخي والتخييلي من خلال تقنية الوصف، عبر وظائفه الدلالية والجمالية.

الكلمات المفتاحية: الوصف، الخطاب السردي، الرواية التاريخية، زرياب، التقنيات السردية.

Abstract:

This study explores the technique of **description** in narrative discourse within the **historical novel**, as exemplified in the novel *Ziryab* by the author Maqbool Al-Alawi. The novel reveals its relationship with history in various ways—through its storyline and narrative techniques—while the study focuses specifically on the descriptive technique and its role in shaping that relationship. The subject of the novel is a biographical account of a character who stands as a significant figure in the Arab cultural and musical heritage, known by the nickname *Ziryab*, whose real name is Abu al-Hasan Ali ibn Nafi' al-Mawsili, a singer and poet. While the exact dates of his birth and death are disputed, it is most likely that he lived between the second and third centuries AH.

In classical narrative, description was associated with a decorative function; however, with the evolution of narrative experience, it has taken on a central role in narrative discourse techniques and in narrative studies, due to its semantic and aesthetic functions. Description is closely tied to historical narrative discourse through its connection to the elements of narration, helping to shape its engagement with historical reality. This connection is particularly evident in *Ziryab*, a biographical novel centered on a real and complex historical figure. Accordingly, this study discusses themes and techniques of description, focusing on its relationship with elements of historical narrative discourse. The research aims to answer questions related to descriptive technique in historical storytelling—chiefly, how historical and fictional narratives interact through the descriptive technique and its semantic and aesthetic roles.

Keywords: Description, Narrative Discourse, Historical Novel, Ziryab, Narrative Techniques

مقدمة:

يتناول هذا البحث تقنية الوصف في الخطاب السردي، في الرواية التاريخية، كما يتمثل في رواية "زرياب"[1]، للكاتب مقبول العلوي، الذي قدم تجارب عديدة في هذا المجال، عبر سلسلة من الأعمال[2]، من بينها الرواية موضوع هذا البحث، حيث تكشف الرواية عن علاقتها بالتاريخ بمختلف الطرق، عبر قصتها، وعبر تقنيات خطابها السردي، ويختص البحث بتقنية الوصف، ودورها في بناء تلك العلاقة.

موضوع هذه الرواية هو سيرة ذاتية لشخصية تُعدّ علامة فارقة في الموروث الثقافي العربي والغنائي بشكل خاص، عُرف بلقبه "زرياب"، واسمه أبو الحسن علي بن نافع الموصلي[3]، مغن وشاعر، اختُلف حول تاريخ ولادته ووفاته، إلا أن المرجح أنه عاش بين القرنين الثاني والثالث الهجري. ارتحل بين الموصل وبغداد وبلاد المغرب والأندلس، متنقلا بين العواصم الإسلامية، تاركا بصمته على الغناء والحياة الاجتماعية، وقد أثرى الموروث الغنائي العربي بإنجازاته التي أسهمت في تبلور هذا الفن ونضجه.

ويرتبط الوصف بالخطاب السردي التاريخي من خلال علاقته الوثيقة بعناصر الخطاب السردي، من الزمن والمكان والشخصية ووجهة النظر، حيث يبني من خلال تلك العلاقة طرائق اتصاله بالواقع التاريخي، ويتأكد هذا الارتباط في رواية زرياب عبر بنيتها بوصفها رواية سيرة ذاتية تتمحور حول شخصية واقعية وإشكالية.

اقترن الوصف في السرد الكلاسيكي بالوظيفة التزيينية، ونوقش في الدرس النقدي على أنه يتعارض مع عنصر السرد، إذ يعد إيقافا لزمن السرد، لكنه مع تطور التجربة السردية اتخذ موقعا

[1] مقبول العلوي: زرياب، رواية، دار الساقي، بيروت، 2014.

[2] وللكاتب: فتنة جدة، البدوي الصغير، وهي روايتان تتناولان التاريخ الحديث للمملكة العربية السعودية.

[3] عبد الواحد ذنون طه: دراسات اندلسية، دار النفائس، بيروت، 1999، ج1، ص 43.

محوريا في تقنيات الخطاب السردي لدى الكتّاب، وفي دراسات السرد، من خلال وظيفته الدلالية والجمالية، حيث يرى ميشيل ريمون "أن الأوصاف التي لها رؤية للفضاء لا تؤخر الفعل، بل تحتويه، وتكون عنه الصورة الملموسة"[1]، ويؤكد هامون "أن الوصف ليس دائما وصفا للواقع بل هو في الأساس ممارسة نصية"[2].

وفقا لذلك يتناول البحث موضوعات الوصف، وتقنياته وصولا لعلاقته بعناصر الخطاب السردي التاريخي. ويعالج البحث هذه العلاقة بالاستعانة بأنواع الوصف لدى فيليب هامون، الذي ميز بين أربعة أنواع من الوصف[3]: الكرونولوجيا وتشمل وصف الزمن وتسلسل الأحداث، والطوبوغرافيا وتشمل وصف الأمكنة والمشاهد، بالتركيز على البيئة المكانية، مثل المدن، الغرف، الطبيعة، إلخ، والبروزوغرافيا، وتعني وصف المظهر الخارجي للشخصيات، والايديولوجيا وتركز على القيم والأفكار.

ويهدف البحث للإجابة على أسئلة تتعلق ب تقنية الوصف في السرد التاريخي عبر تناول رواية زرياب، وأهمها ما يتصل بتفاعل السرد التاريخي والتخييلي من خلال تقنية الوصف، ودور الوصف في الخطاب السردي عبر وظائفه الدلالية والجمالية.

الدراسات السابقة:

1- نور الهدى عجاين، أم الخير مفاتيح: جماليات الوصف في رواية "عشب الليل"، لإبراهيم الكوني، الجزائر، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، جامعة قاصدي مرباح، 2021.

يتناول البحث أهمية الوصف وأنواعه في أعمال إبراهيم الكوني، وينطلق من التساؤل حول ما إذا كان الوصف يكتفي بالوظيفة التوضيحية أم يتجاوزها إلى بناء جمالي ورمزي يعزز رؤية الكاتب وروح نصوصه.

2- هيفاء الفريح: تقنيات الوصف في القصة القصيرة السعودية، النادي الأدبي بالرياض والمركز الثقافي العربي، بيروت-الدار البيضاء، 2009.

---

[1] حسن نجمي. شعرية الفضاء، المركز الثقافي العربي، ط1، الدار البيضاء، المغرب، 2000، ص72.

[2] السابق: ص72.

[3] السابق: ص72.

ويركز الكتاب على تحليل الوصف بوصفه عنصرا أساسا في بناء القصة القصيرة السعودية، واهتم بإبراز أهمية الوصف في تشكيل الأحداث والشخصيات والبيئة، وتصحيح النظرة النقدية التي تعتبر الوصف مجرد مكمل للسرد.

3- نبهان حسون السعدون: "ما لم تقله خوذتي: دراسة تحليلية للوصف في قصص فارس سعد الدين"، مجلة دراسات موصلية، جامعة الموصل، العراق، 2009.

وتتناول تحليلًا فنيًا وتقنيًا لعنصر الوصف في مجموعة قصصية تحمل عنوان "ما لم تقله خوذتي" للكاتب فارس سعد الدين، ويركز البحث على أن الوصف في رواية عشب الليل لا يهدف إلى محاكاة الواقع، بل إلى إعادة تشكيله أدبيًا وفق قوانين اللغة الفنية، مما يمنح النص القصصي عمقًا جماليًا ودلاليًا.

4- عبد اللطيف محفوظ: وظيفة الوصف في الرواية، دار اليسر، الدار البيضاء، 1989.

دراسة نقدية دقيقة تستكشف الدور الجوهري الذي يلعبه الوصف في بناء النص الروائي، بعيدًا عن النظرة التقليدية التي تراه مجرد عنصر زخرفي، حيث يركز على أن الوصف يؤدي وظائف متعددة تتكامل مع السرد، مثل التمثيل، الإيحاء، والتكثيف الدلالي.

أولا: وصف الشخصية:

تكشف الرواية علاقتها بالوصف وبالشخصية منذ العنوان، فعنوانها هو وصف للشخصية الرئيسة، وهو يسم الرواية بوصفها معادلا موضوعيا للشخصية المحورية التي تشكل بسيرتها الذاتية موضوعا للخطاب السردي. ومفردة "زرياب" تحمل مضمونا وصفيا[1]، فهو لقب أطلق عليه، تشبيها له بطائر اسود جميل الصوت، وهو وصف يربط الشخصية الرئيسة بالحدث المحوري، وهو تاريخ الغناء متمظهرا في تاريخ الشخصية وتحولات حياتها، ما يبرر كون الوصف محور الرواية، والعنصر المهيمن على خطابها السردي.

وتنتمي الرواية لرواية الشخصية فموضوعها وراويها وبطلها شخصية، وتلك نقطة التقاء بالوصف، الذي يعرف بعلاقته بالشخصية، حيث "الوصف الحامل الحقيقي لعمق إدراك الكاتب لعالمه

[1] مقبول العلوي: زرياب، ص21.

الخـاص وللعالم بصفة عامة، وضمنيا أصبح معيارا لقياس درجة سمك وعمـق إدراك الشخصيات لعالمـها سـواء على المستوى المعرفي أو الأيديولوجي"[1].

تتناول الرواية قصة حياة زرياب من خلال رحلته الطويلة من الموصل فبغداد ثم المغرب إلى الأندلس، وتجعل من شخصيته معادلا موضوعيا للحقبة التاريخية التي عاشها، فقد مر بمدن وأماكن شكلت نقاطا ساخنة في خارطة التاريخ الحضاري والاجتماعي لذلك العصر، وكانت تلك الرحلة تتواكب مع تحولات حياته وتطور شخصيته، على مدارها، حيث استغرقت أكثر من ثلاثين عاما.

تتمحور الرواية حول علاقة بطلها المعقدة بالمغني إسحاق الموصلي، حيث تبناه الأخير -بعد أن وهبه إياه الخليفة المهدي- وأعتقه ورعى موهبته، لكنه انقلب إلى عدو له بسبب خوفه من منافسته، فقرر نفيه من بغداد، وهنا بدأت رحلته، التي انتهت بموته في الأندلس.

يفتتح الراوي البطل روايته ببناء شخصية الموصلي بلغة واصفة، "يحدث كثيرا ان يسامرني معلمي"[2]، يضيف وصفا جديدا لعلاقته بسيده، من خلال وصفه بالمعلم، ويؤطرها بالفعل "يسامرني" دلالة على حميمية تلك العلاقة، وهنا لا يكتفي الراوي في هذا المقطع بالوصف الخارجي الجامد لمظهر الشخصية والوصف الداخلي لسماتها النفسية، بل يبني حبكة القصة بواسطة بناء العلاقة الإشكالية بين شخصياتها، بناء وصفيا، فالوصف هنا يتخذ مظهرا متحركا، فهو ينصب على الأجزاء النابضة بالحركة كما في أفعال الشخصيات في علاقاتها بعضها مع بعض.

"كان الاخرون يفكرون عوضا عني، ويصنعون أقداري... رسموا لي خط حياتي فمشيت قالوا: ابق فبقيت، وقالوا لي: ارحل فرحلت قالوا لي: غنِّ فغنيت قالوا لي: اصمت فصمت"[3]. في هذا المقطع يلتبس السرد بالوصف، فهو حافل بالأفعال، أفعال تسهم في تطور الأحداث، وتتمدد أفقيا لتصنع الصورة الكلية للشخصية، بتحديد سمات متعددة لها، حيث يصف الراوي نفسه بالعبودية، ويحلل هذه الدلالة لتفاصيل تعمق وقعها على القارئ، من خلال تحليل علاقة العبد بالسيد، في مقابلات دلالية متعددة.

وفي مقطع آخر يصف تحولا في الشخصية، من القوة والجرأة إلى الهشاشة والرقة التي أصابته جراء الأحداث الصعبة التي أحاطت به في رحلته، يصفها في تجسيد حركة الشخصية مكانيا بواسطة

[1] عبد اللطيف محفوظ: وظيفة الوصف في الرواية، ص13.
[2] مقبول العلوي: زرياب، ص22.
[3] السابق: ص7.

أفعال متتابعة وظيفتها بناء صورة الشخصية وتوضيح مدى تحولها، "أعرف أن كل كلمة قد ترفعني لأعلى مدى، وأخرى قد تهبط بي إلى أسفل، بكاء طفل يؤذيني، صراخ امرأة يجعلني أمكث أياما في حال صعبة..."[1].

وتمتد هذه العناية بتفصيل أوصاف الشخصيات لمجمل شخصيات الرواية، ومن أبرزها شخصية هارون الرشيد التي تشكل معادلا موضوعيا للسلطة، ويبدو أن علاقة البطل بالسلطة هي محور أساس من محاور الرواية، فأحداث القصة تدور في بلاط القصور، وتتشابك من خلال علاقة البطل بأعلى هرم السلطة، بالخلفاء، في بغداد والأندلس، والرواية حافلة بلغة فارهة تتناسب وأجواء الفخامة والرفاهية التي عاش في كنفها البطل، وبذلك تعتمد بنية القصة على وصف الشخصيات، وتتطور أحداثها بواسطة الوصف المفصل لعلاقات الشخصيات.

"لست غريبا عن القصور، لكن للرشيد مهابة"[2]، هذه الجملة الوصفية تتطلب تفصيلا، فجاء تفصيلها بسرد حادثة نكبة البرامكة[3]، التي جاءت لتوكيد صفة المهابة، لكن لشخصية الرشيد جوانب اخرى، فهو محب للعلم والعلماء، ومقرب للمثقفين، يتجسد هذا الجانب في وصف مجلسه "على يمينه امتد صف طويل من العلماء والشعراء والأدباء، وعلى يساره تلمح القادة وسادات الأقاليم"[4].

ويجدر القول ان مفهوم الشخصية في الرواية يمتد ليشمل الأماكن، والأشياء، إذ يضفي عليها الراوي سمات إنسانية، عبر الوصف، وهكذا تحضر بغداد والموصل وقرطبة، وغيرها، كما سيأتي في مبحث وصف المكان.

وعلى سبيل المثال نجده يصف أوتار العود، مستلهما مكونات جسد الإنسان، "الوتر الأول يسمى "الزير" وقد صبغته باللون الأصفر وهذا يكون مثابة الصفراء في الجسد، والوتر الثاني في الترتيب يسمى المثنى ولونه أحمر وهو في الغلظ والسمك ضعف سمك الوتر الزير وهو بمكانة الدم في الجسد، ويأتي بعد ذلك الوتر المثلث وهو في غلاظته و سمكه ضعف الوتر الزير والمثنى ولونه أبيض وهو

[1] مقبول العلوي: زرياب، ص79.

[2] ،السابق:: ص57.

[3] نكبة البرامكة مصطلح يشير إلى ما وقع للبرامكة على يد الخليفة العباسي هارون الرشيد من قتل وتشريد، ومصادرة أموال، وقد كانوا وزراء الدولة وأصحاب الأمر والسلطان، وتعد هذه الحادثة أحد أبرز الأحداث السياسية المؤثرة في حكم هارون الرشيد، انظر: https://ar.wikipedia.org/wiki/%D9%86%D9%83%D8%A8%D8%A9_%D8%A7%D9%84%D8%A8%D8%B1%D8%A7%D9%85%D9%83%D8%A9

[4] مقبول العلوي: زرياب، ص59.

بمنزلة البلغم من الجسد، ويدعى الوتر الرابع باسم البم ولونه أسود وهو ضعف الوتر المثلث في الغلاظة والسمك وهو أعلى أوتار العود، وهو بمكانة السوداء في الجسد. وهذه الأوتار الأربعة مقابلة لطبائع البشر، ومع ذلك جاءت إضافتي للوتر الخامس، فقد رأيت أن يكون في مكان وسط بين الوترين العلويين والوترين السفليين وسميته الوتر الوسط الدموي، وكان بمثابة النفس في الجسد"[1].

ثانيا: وصف المكان:

تحتفي الرواية بالمكان، حيث تشكل الرحلة بين أماكن عديدة -من أقصى حدود البلاد الإسلامية لأقصاها- عصب القصة والخطاب، وشمل وصف المكان القرية والمدينة، والبيت وتنوع بين الوصف الخارجي والنفسي. ويعد المكان مكونا حيويا من مكونات الوصف، حيث يعرَّف الوصف عادة بكونه ذلك النوع من الخطاب الذي ينصب على ما هو جغرافي أو مكاني أو شيئي أو مظهري أو فيزيونومي إلخ.. سواء أكان ينصب على الداخل أم على الخارج"[2]، فعلاقة الوصف بالمكان علاقة جوهرية، لا ينفك أحدهما عن الآخر.

ويقول حميد الحميداني عن المكان "بأن ضوابط المكان في الروايات متصلة عادة بلحظات الوصف، وهي لحظات متقطعة أيضا تتناوب في الظهور مع السرد أو مقاطع الحوار، ثم إن تغيير الأحداث وتطورها يفترض تعددية الأمكنة واتساعها أو تقلصها حسب طبيعة موضوع الرواية"[3]. ولعل الرابط الحقيقي بين الرواية والمكان هو إدراك الإنسان فكثيرا ما يؤثر هذا الأخير بميوله، وأهوائه ومصالحه ورغباته على المكان فيهتم ببعض الأمكنة ويهمل غيرها وفقا لوجهات نظره، "إن الأمكنة والشخصيات والاشياء في البناء السردي تتطلب خصوصية، تتجسد في اللغة الوصفية"[4].

ويقترن وصف المكان بوصف الشخصية، حيث يؤنسن الراوي الزمان والمكان بإضفاء صفات بشرية، تضمها لشخصيات الرواية، وهنا يفتتح الراوي مقطعا جديدا يترافق مع ظهور مدينة بغداد في الرواية. "كانت بغداد منذ أن وضع أساساتها أبو جعفر المنصور قد أصبحت ملاذا لكل فئات البشر"[5]، وتنبئ مفردة الملاذ هنا عن رابط إنساني يمثله الدفء في علاقة الإنسان بالمكان.

---

[1] مقبول العلوي: زرياب، ص206.

[2] عبد اللطيف محفوظ: وظيفة الوصف في الرواية، ص13.

[3] حميد لحميداني: النص السردي من منظور النقد الأدبي، المركز الثقافي العربي،ط3 ، بيروت،2000، ص: 92.

[4] عبد اللطيف محفوظ: وظيفة الوصف في الرواية، ص42.

[5] السابق: ص51.

وهو يصف مدينة الموصل بأنها لا تخاف ولا تفرح، فقد روضتها الأحداث الجسيمة من حروب وغارات لتتجلد وتتبلد مشاعرها، "هذه المدينة الضاربة الجذور في عقلي وقلبي، هذه المدينة التي كانت ولا تزال على أهبة الاستعداد لغزوة أو غارة في رابعة النهار أو في جوف الليل، إنها على أتم الاستعداد لكل المناسبات، فلا يربكها شيء ولا يخيفها شيء ولا يفرحها شيء أيضا"[1]، يجيء هذا الوصف تأكيدا واستطرادا لوصف الموصل في مفتتح الرواية، فهي "مدينة كبيرة وقديمة، تبدو كأنها دوما على استعداد لمواجهة الشرور والفتن"[2].

وفي موضع آخر تصل القافلة لمدينة نصيبين، ومرة أخرى يؤنسن هذه المدينة بإسباغ صفة بشرية عليها، فهي مدينة "منكفئة" على نفسها، مشخصا -بكلمة واحدة- ضيق المدينة وازدحام بيوتها وشوارعها[3]، "كنت أسأل نفسي وألومها ما إذا كنت محقا بترك زوجتي بمفردها خارج هذه المدينة المنكفئة على نفسها"[4].

ثالثا: وصف الزمن:

يرتبط الزمن بالحبكة، وفي مركزها الحدث، في تشكلاته وتصاعده الزمني، ويشتبك الوصف مع عنصر الزمن، ويؤدي من خلال ذلك وظائف دلالية مفصلية وهامة، ويسهم الوصف في اقتصاد لغة الخطاب السردي، ولا ينفصل البناء الزمني عن الوصف حيث يقدم الأحداث من خلال حركة الشخصية والحدث في المكان.

ينهض الخطاب السردي على ركيزتي السرد والوصف، ويتحرك وصف الزمن في الخطاب السردي من خلال العلاقة بينهما، إذ أن "الأداتين الرئيسيتين لتقديم النص هما الوصف والسرد ، يختص الأول بتقديم الأشياء وتختص الثاني بتقديم الأحداث"[5]. ويؤكد جيرار جينت علاقة الوصف بحركة الزمن كما تتمثل في السرد بقوله إن الوصف أداة لا يمكن الاستغناء عنها في الخطاب السردي، لأنها تسهم فى خلق جو مناسب للسرد "... فكل سرد يتضمن سواء بطريقة متداخلة أو بنسب شديدة التغير أصنافاً من

[1] مقبول العلوي: زرياب، ص122.
[2] السابق: ص8.
[3] مقبول العلوي: زرياب، ص130.
[4] السابق: ص132.
[5] جان ريكاردو: قضايا الرواية الحديثة، ترجمة صالح الجهيم، وزارة الثقافة والإرشاد القومى، دمشق، 1977، ص 166.

التشخيص لأعمال أو أحداث تكوّن ما يوصف بالتحديد سردا، هذا من جهة، ويتضمن من جهة أخرى تشخيصاً لأشياء أو لأشخاص، وهو ما ندعوه في يومنا هذا وصفاً"[1]

ويمتد الوصف ليلتبس بالحدث وتطوره على محور الزمن، على العكس من المنظور السائد له على أنه توقيف أو إبطاء لحركة الزمن، فالحدث لا يمكن فصله عن فاعله، ولا يمكن أن يوجد الفاعل مستقلا عن المكان والزمان، وبهذا الصدد يرى ميشيل ريمون "أن الأوصاف التي لها رؤية للفضاء (...) لا تؤخر الفعل، بل تحتويه، وتكوّن عنه الصورة الملموسة"[2].

وفيما يتعلق برواية زرياب، فهي تغطي -بموازاة قصة بطلها زياب- مساحة زمنية واسعة، تتضمن أحداثا كبرى من الحياة الاجتماعية والسياسية في العالم الإسلامي في فترة خصبة بالتحولات، من خلال شخصية بطلها، مغني البلاط، الذي اختُطف من طفولة هادئة إلى حياة مليئة بالتعقيدات، حيث احتضنته قصور الخلفاء والامراء، من أقصى الشرق لأقصى الغرب.

يصف زرياب سنوات طفولته، "في الموصل عشت تسع سنوات من عمري، صارت مثل التماعة تومض كشعلة في ليل بهيم، ... لا أذكر من طفولتي سوى ذلك الفجر الأليم، الفجر الذي خطفت فيه من قرية غافية تحت سفح جبال طوروس"[3]، حيث يعكس تقلص ذكرياته من زمن طفولته في صورة شعلة، مشبها زمن طفولته بالليل البهيم، ومضفيا صفة حسية كالألم على عنصر زمني كالفجر.

ويبدو أن الوعي بالمعنى الوجودي للزمن يطغى على الرواية، فهي حافلة بمفردات تغطي الدور المفصلي للزمن في حياة الشخصية، وتكشف عن الوعي بالزمن في مختلف تشكلاته. وتكشف المفردات عن عمق الوعي بما يسمى الزمن النفسي لدى الراوي، حيث يشبه سرعة زمن طفولته بأنه "مثل التماعة شعلة"، ويمثل ذلك الوصف الوعي بالزمن النفسي، طريقة وعيه بمفهوم طول الزمن وقصره، وربطه بالحالة النفسية، "منذ متى غادرت الموصل؟ ثلاثون عاما مرت، نعم ثلاثة عقود انصرمت وكأنها ثلاثمئة عام إذا قستها بمقياس الشوق والحنين"[4]، ويقول زرياب: "كانت السنون تترى وتمر سريعا، كانت خمس

[1] رولان بارت وآخرون: طرائق تحليل السرد الأدبي ، منشورات اتحاد كتاب المغرب، الرباط، 1992، ص75.
[1] حسن نجمي: شعرية الفضاء، المركز الثقافي العربي، ط1، الدار البيضاء، المغرب، 2000، ص72.
[3] مقبول العلوي: زرياب، ص9.
[4] السابق: ص121.

سنوات على وجه التحديد"[1]، وهو يصف المدة بين تولي الأمين الحكم وحتى حضور المأمون ومحاصرته بغداد لينهي حكم الأمين.

"كانت الأيام التي تلت تمر ببطء، وقد وضعت سورا عاليا من نار بيني وبين سنواتي السابقة، ومع تهادي القافلة في الصحارى والأودية والجبال والواحات، ومع تعاقب الليل والنهار، حاولت أن أتناسى كل شيء"[2]، هنا تعكس سمات الزمن من البطء والرتابة الحالة الشعورية للشخصية، حيث العجز عن نسيان الماضي الأليم، على الرغم من بعد المسافة الزمنية، وبدلا من النسيان كان الزمن يرسخ حالة الألم النفسي، الذي يغدو "سورا عاليا من نار".

ونجده يصف عمق التحولات والمفارقات الزمنية التي تعرض لها بقوله في مفتتح الرواية: "وقد قضيت جل سنوات عمري بين أمر ونقيضه، وتقلبت في بوتقة من الحب المخلوط بالبغضاء وتراوحت خطواتي بين ذهاب وعودة، بين حل وترحال وبين إقدام وإحجام في متوالية لا نهاية لها"[3]. ومن أبرز التحولات والانعطافات في زمن الحدث تحول علاقة الشخصيتين الرئيستين، إذ ينتقل الراوي بين المحورين الرئيسين لأحداث الرواية بجملة تستبق التحول في العلاقة، ودور الزمن فيها، "وكنت سأكتفي من سيدي إسحاق بذلك ولكن كان للزمن رأي اخر"[4].

يمتد الحدث في هذه الرواية رأسيا في الزمن بينما ينتشر الوصف أفقيا، يحيط بمفاصل الحدث ويمنحها بعدها الواقعي أو الموهم بالواقعية. والسرد من حيث ارتباطه بالحدث يمتاز بالحيوية وينطوي على الحركة، كما أن الوصف يقارب الموصوفات في حال سكونها، لكنهما يتبادلان الوظيفة لخدمة الدلالة، فالسرد يتخلله السكون حين تكون غايته بناء صورة للشخصية أو تحليل العمق الزمني والمكاني، وفي المقابل يكتسب الوصف القدرة على الحركة حين يمتزج بالسرد ويتضافر معه، ويتمثل اندماج الوصف بالسرد من وجه آخر في "وجود أفعال حركية ووصفية في وقت واحد"5، ويوضح جينيت ذلك بأنه "حتى الأفعال السردية لا يمكن أن تخلو من الوصف، فأن نقول: (أخذ السكين)، تتضمن وصفا يميزها عن قولنا: (أمسك بالسكين)، إذ تعين كل منهما طريقة مختلفة للفعل... وبما أن أي حدث يمكن التعبير عنه بواسطة عدد من الأفعال التي تناسبه، فإن اختيار فعل بعينه، هو انتقاء لحالة وصفية تحدد

[1]: السابق:، ص98.
[2] السابق: ص137.
[3] مقبول العلوي: زرياب، ص8.
[4] السابق: ص44.
[5] عبد اللطيف محفوظ: وظيفة الوصف في الرواية، ص43.

نوعية الحدث، أو نوعية الوعي به أو التفاعل معه"[1]. "فقد وهبني سيدي القديم لسيدي الجديد"2، يصف الراوي هنا حدثا رئيسا يشكل نقطة تحول وانطلاق القصة، وهو بداية ارتباطه بإسحاق الموصلي، ويختار الفعل (وهبني) ليصف ذلك الارتباط بالعبودية، يحدد صفته بوصفه عبدا وصفة إسحاق بوصفه سيدا.

وفي المقطع التالي، يتناول الراوي تجربته في الغناء، بوصف انتقالات زمنية بين الماضي والمستقبل، بسؤال البطل نفسه: "هل سأصبح مغنيا ذات يوم؟"[3]، فيمهد لحديث عن صعوبات في مهنة الغناء، كما تتمثل في إعداد المغني، فهي عملية "طويلة ومعقدة"، لينتقل بعدها لتجربته الخاصة.

تتألف الرواية من مقاطع، يقدم كل مقطع حدثا مستقلا، أو شخصية جديدة، وهناك نمط حيث يبدأ المقطع بفعل سردي، يليه عملية وصفية، ومثال ذلك قول الراوي: "كان سيدي إسحاق الموصلي نديما مقربا للرشيد"، إذ يقدم الراوي بهذه الجملة شخصية مؤثرة في مسار السرد، ويتبع هذا التقديم بتحليل تفاصيل حضور هذه الشخصية ودورها في حياته، حيث أن إسحاق الموصلي كان السبب في اضطرار البطل للرحيل، حين نفاه من بغداد، وهدده للخروج عنها.

يتابع الراوي البطل وصف سيده بأفعال سردية تتوسط جملا وصفية، وتتبادل معها الأدوار، "كان سيدي نديما مقربا...قرأ كتبا كثيرة...ألمّ بكمّ وافر من المعرفة...الخ"[4] فكل فعل سردي حدد بوصف يرسمان سوية صورة الشخصية، فهو نديم (مقرب)، وهو قارئ نهم، قرأ كتبا (كثيرة)، وألم بمعرفة، لكنها معرفة (واسعة). يستغرق هذا المقطع ثلاث صفحات، رسمت صورة تفصيلية لشخصية إسحاق، تمهيدا للحدث الرئيس، حيث يختم المقطع بجملة: "كان هذا الوجه اللين فقط لإسحاق الموصلي، اما الوجه الآخر المليء بالندوب والقبح فقد عرفته في قادم الأيام"[5]، من خلال هذه الجملة الوصفية يصور الراوي عمق التناقض في شخصية الموصلي، من خلال الانتقال في الزمن، فهو ذلك المثقف اللين الجانب، ومع كل صفاته الحميدة له وجه آخر، يكون فيه قاسيا جلفا.

---

[1] السابق: ص43.
[2] مقبول العلوي: زرياب، ص12.
[3] السابق: ص41.
[4] السابق: ص38.
[5] مقبول العلوي: زرياب، ص40.

الوصف بين الخطاب التاريخي والتخييلي:

تتجلى ثنائية الخطابين السرديين التخييلي والتاريخي في رواية زرياب في العلاقة بين مكونات الخطاب السردي، من زمن ومكان وشخصيات، كما تتكشف من منظور الراوي، فالقصة تتمثل في الأحداث في زمن وقوعها الأصلي، في ترتيب أفقي، بينما يخترق الخطاب القصة ليعيد ترتيب أحداثها وفق منظور الراوي والشخصيات، ويلعب الوصف دورا مهما في تضفير التخييلي بالتاريخي في الرواية.

وترتبط رواية زرياب بالتاريخ عبر موضوعهما المشترك، أعني به الإنسان، فالرواية محورها شخصية إنسانية، بما تعكسه من صور المجتمعات التي تنقلت بينها، إنها تمثيل عميق للتاريخ بوصفه تاريخ الإنسان. وتطرح الرواية من خلال عنوانها الذي يتمحور حول الذات الإنسانية، زرياب، ثم السرد بصوت البطل البعد الإنساني للتاريخ، وتعبر الرواية عن هذا التداخل بتساؤل يطرحه زرياب معرفا بما يرويه من التاريخ بوصفه انعكاسا لرؤيته قائلا: "أين أنا من كل ذاك؟"[1]، ويحدد البطل بذلك دوره بوصفه شاهدا على عصره.

ويلتقي التاريخ والتخييل في المكونات الرئيسة لكلا الخطابين، وهي الحدث والزمن والشخصيات والمكان، والراوي، لكن كلا منهما يقارب تلك العناصر من منظور خاص، حيث التاريخ يزعم لنفسه امتلاك الحقيقة، بمرجعيته الواقعية، بينما يبني السرد التخييلي عالمه المرجعي على أساس الإيهام بالواقع، وعلى أساس هذه العلاقة الإشكالية بالواقع تنعقد التجربة الجمالية في قراءة الرواية التاريخية، حيث إن تحديد دلالة القصة في الخطاب السردي بوجه عام يعتمد بشكل أساس على الكيفية التي يبني بها المتخيل علاقته بمرجعه، بانتهاجه آلية الإيهام، أو تعمده كسرها، أو التردد بين الحالتين، ويرتكز على المعايير التي تحكم علاقته بمرجعه: من أين يستمد القارئ معاييره لبناء مرجعية المتخيل، إن كان من وجهة نظر شخصيات المتخيل (معيار الثقة)، أو من مقارنة عالم الشخصية بعالمه الواقعي التجريبي (معيار الحقيقة)2.

[1] ،السابق: :ص103.

[2] انظر: أمبرتو ايكو: ست نزهات في غابة السرد، ص144.

وللسرد التاريخي في رواية زرياب أهداف عديدة تلتقي معظمها عند مساءلة التاريخ أو إعادة صياغته، من منظورات متعددة، ومن ثم معالجته بواسطة تقنيات السرد وأدواته. ويغني البعد التاريخي الرواية بخصائص تقنية وجمالية، تمنحها طابعها الخاص، أبرزها تلك العلاقة الجدلية بين المؤلف والقارئ، حيث تثير أسئلة بشأن علاقة القارئ بالنص، من حيث مرجعيته بين الواقع والمتخيل: من منهما يسبق الآخر، وأيهما يقود الخطاب السردي، وأيهما الغاية وأيهما الوسيلة.

وتمتاز الرواية بمزج الحياة الاجتماعية بالأحداث السياسية، وملاحظة الوشائج بينها، فالمجتمع في تأخره أو ازدهاره كما تقدمه الرواية هو انعكاس للحكم السياسي الذي ينضوي تحته، ما يقترب بالرواية لأن تكون وثيقة غنية وحية للحياة الاجتماعية في الحقبة التاريخية التي تتناولها، ويلعب الوصف دورا طاغيا في تقديم الحياة الاجتماعية، عبر وصف المكان.

وتأتي أهمية رواية "زرياب" من حساسية الفترة التاريخية التي تعالجها من جهة، ومن العمق الفكري للشخصية الرئيسة من جهة أخرى، حيث تتناول حياة شخصية تاريخية إشكالية مركبة، تتضافر مع زمن إشكالي تمثله خلفيتها التاريخية كما وكيفا، وتحكي قصة بطلها زرياب، في رحلته الطويلة بين عواصم الحضارة الإسلامية في أوج ازدهارها بين القرنين الثاني والثالث الهجريين، وينعكس هذا العمق والاتساع التاريخي الزمني والمكاني على شخصيته، التي كانت تنضج وتتبلور أثناء الرحلة الطويلة الممتدة في الزمن والمكان.

وفي الرواية تتجلى ثنائية سردية تخدم البعد التاريخي لها، ما بين السرد والوصف، ففي حين يتناول السرد أحداثا تاريخية موثقة في كتب التاريخ، يتولى الوصف تصفية المتن التاريخي المروي من منظور الراوي البطل، وذلك ينهض الوصف بالجانب التخييلي، بينما يحمل السرد أمانة نقل التاريخ.

يتوازى التاريخي والواقعي في رواية زرياب، إذ يمكن تصنيفها ضمن الرواية الواقعية، حيث تحتشد قصتها وخطابها بكل ما من شأنه إيهام القارئ بمرجعيتها الواقعية، لكن الواقع فيها يقدم من منظور الذات، حيث لا يوجد التاريخ سوى في وعي الذات، هكذا تقول الرواية من خلال تضافر عناصر الخطاب السردي والوصف لخدمة منظور الراوي البطل، حيث يهيمن الراوي بمنظوره على إنتاج الخطاب وتأسيس القصة.

تدور أحداث القصة حول بطلها زرياب، الذي تتداخل حياته مع أحداث مفصلية في حياة الدولة العباسية في عهد هارون وابنيه الامين والمأمون، وكذلك الحكم الاموي في الاندلس، مرورا بمناطق

عديدة تخللت رحلته ما بين بغداد والاندلس، رحلة ممتدة في الزمان ومنتشرة في المكان. يحدد الراوي البطل حدود قصته زمنا ومكانا موهما بتاريخية قصته من خلال ذكر المخطوطة التي وثق فيها سيرته، والتي هي بذاتها متن الرواية: "حتى هذه اللحظة، وبعد مرور خمسة وثلاثين عاما وأنا أخط هذه المخطوطة لا أستطيع أصف ذاك الشعور الذي غمرني"[1]، ويوثق زرياب تاريخ كتابته المخطوطة: "إنني أكتب هذه المخطوطة منذ أن تحركت أول قافلة لي من بغداد في طريق منفاي، كنت أختلس أوقات لكي أكتب سيرة الطائر الأسود الذي يعنيه اسمي "زرياب"، لقد كتبتها بعيدا عن العيون"[2]، يأتي هذا التصنيف في ختام مخطوطته في فقرة مستقلة تبدأ بتوثيق مكان وتاريخ إنجازه المخطوطة، "قرطبة في عام 237 للهجرة"[3].

يحاط النص بكل ما من شأنه إضفاء الواقعية على القصة، فالرواية مطعمة بالتواريخ، بل إنه يوثق مدة كتابة المخطوطة بالسنوات، إذ تغطي خمسة وثلاثين عاما من حياة الشخصية، ويؤكد هذه المدة بقوله: "أربعة وثلاثون عاما مضت وأنا على تراب هذه الأرض المعطاء"، مشيرا للأندلس، ويضيف: "لقد جئت إلى قرطبة منذ أكثر من ثلاثة عقود"[4]. "منذ متى غادرت الموصل؟ ثلاثون عاما مرت"[5]

وتتأكد واقعية القصة بختام الرواية بصوت شخصية أخرى، ظهرت لتدعم البعد التاريخي للقصة، حيث يتسلم السرد أحد تلاميذ زرياب، بعد أن سجل زرياب نهاية علاقته بالقصة "لقد كسرت اليوم ريشتي وحطمت دواة الحبر عندما أبت الكلمات أن تتحول إلى حروف، وها أنذا أقف عاجزا عن كل فعل وكلام"[6]. وبهذا الشأن يبدأ آخر مقطع من النص، بعبارة: "ورقة في آخر المخطوطة كتبها الشاعر القرطبي أسلم بن عبد العزيز القاضي، أحد تلاميذ زرياب المقربين"[7]، وتوثق المقطع بالمكان والزمن: "قرطبة في عام 238للهجرة"[8]

[1] مقبول العلوي: زرياب، ص92.
[2] السابق: ص214.
[3] السابق: ص214.
[4] السابق : ص214
[5] السابق: ص121.
[6] السابق: ص216.
[7] مقبول العلوي: زرياب، ص217.
[2] السابق: ص217.

هذه العبارة تشير لوجود طرف ثالث يفصح عن حضوره لكنه في الوقت نفسه يتبرأ من تدخله في القصة، إذ ينسب السرد لشخص آخر حاضر في القصة، ويكشف عن تحول السرد الذاتي إلى سرد موضوعي بضمير الغائب، مختتما الخطاب السردي بإشارة تؤكد تاريخية القصة المحكية.

كتبت الرواية بضمير المتكلم، بشكل كامل، بصوت البطل، الذي يهيمن على السرد، ما يجعل منها سيرة ذاتية، تتأثر بمنظور الراوي الذاتي عن نفسه وعن الأحداث التي عاشها خلال خمسة وثلاثين عاما، وتتأكد ذاتية الوصف بقول الراوي واصفا ظروف كتابة المخطوطة: "لقد كتبتها بعيدا عن العيون، وفيها كنت أبثها حزني وشكواي فكانت نعم المعين لي في سنواتي الماضية القاحلة، لقد كتبت مخاوفي وسردت آلامي فأطلت في وصفها"[1]. وذلك ما يجعل من حياته معادلا موضوعيا للتاريخ الإسلامي من الشرق للغرب، لكن هذه الذاتية لا تنفصل عن المرجع الواقعي للخطاب، إذ يخدم اختيار الراوي البطل واقعية القصة، بما يتمتع به من امتياز الرؤية الداخلية الكلية لذاته، من حيث هي محور السرد، قصة وخطابا. ويهيمن الراوي بمنظوره على الخطاب السردي، حيث تغدو رؤيته الذاتية أداة تسخر لخدمة واقعية القصة، من خلال الوصف بمختلف وظائفه، فهو شخصية محورية بل هي محور الرواية، يروي قصته الخاصة، بأدق تفاصيلها.

[1] السابق: ص214.

خاتمة:

يتضافر السرد والوصف في هذه الرواية بحيث يظهر عمق تغلغل الوصف في مفاصلها، حيث يتجاوز وظيفته التزيينية إلى وظائف دلالية وجمالية. ويمتزج التاريخي بالتخييلي، إذ يساعد الوصف في هذه الرواية على خلق عالم متكامل ومقنع للقصة، فمن خلال تفاصيل الأماكن استطاع الكاتب أن ينقل القارئ إلى بيئات مختلفة، سواء كانت مدينة صاخبة، أو قرية هادئة، بيت الخليفة أو بيت متواضع، ما يجعل الأحداث أكثر واقعية وتأثيراً على القارئ. والوصف المكاني في رواية زرياب ليس وصفا ساكنا حيث المكان ليس إطارا للأحداث فحسب، بل هو مؤثر في سيرها، ويدعم أفعال الشخصيات ويفسرها. ويركز الوصف على خصوصية المكان فبغداد وقرطبة والموصل والقيروان هي عواصم كبرى في التاريخ الحضاري للمسلمين، ولكل منها طابعه الخاص الذي ظهر في وصف مجتمعات تلك المدن.

وفيما يتعلق ببناء الشخصية فقد أسهم الوصف في تقديم الشخصية وتمثيل تطورها من خلال الوصف الخارجي لمظهر الشخصية وحركتها في المكان، والوصف الداخلي لانفعالاتها ونوازعها وأفكارها. ويلاحظ غلبة عنصر الشخصية على عنصر الوصف من خلال أنسنة المكان والزمان، حيث تكاد الأمكنة والأزمنة تتنفس بانفعالات ونوازع إنسانية حقيقية. أما وصف الزمن فقد شكل العمود الفقري للرواية حيث نهض بالحبكة ودعم تعقيدها وتطورها بالوصف الداخلي والخارجي للشخصيات والأماكن، وأظهر الوصف الوعي بالزمن في مختلف مظاهره الحسية والنفسية.

ويقترن وصف المدن والاماكن والأشخاص بتحليل نفسي دقيق ويرتبط ببعد عاطفي انفعالي يصدر عن منظور الراوي البطل. ويتوافق الوصف الانفعالي النفسي للأشياء والأماكن والشخصيات مع المنظور الداخلي للراوي، ويهدف لتعميق الشعور بالزمن والمكان والشخصيات. والوصف الذاتي ممتزجا بالمونولوج يمنح الخطاب السردي صفة السيرة الذاتية التي هي وثيقة الصلة بالمرجعية التاريخية.

ويتضح ختاما أن غلبة الوصف ترتبط بتقوية المرجعية التاريخية للرواية، حيث ربط الأحداث بتفاصيل الشخصية والمكان يضفي عليها الواقعية، ويندرج ذلك تحت الوظيفة الايهامية للوصف.